

كان الجاحظ في بداياته يعيش حياةً بسيطة، فقد نشأ في طبقةٍ اجتماعيةٍ فقيرةٍ مكتسباً قوته من عمل يديه، ورغم ذلك فهو لم يترك العلم والمطالعة، ثم اتصل بالشيوخ والأئمة آنذاك وأخذ عنهم كما سبق الذكر، كما خالط أعلام الترجمة والكتابة وقرأ ما تيسر له من الكتب المترجمة أيام المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون، ومن الجدير بالذكر أنّ المكتبات العامة لم تكن متوفرة في تلك الفترة أي في أواخر القرن الثاني للهجرة، كما كانت الكتب نادرة وغالية جداً، فلم تكن إمكانيات الجاحظ المادية تسمح له بشرائها، لذا كان يحصل عليها عن طريق أساتذته وأصدقائه الذين كانوا يضعون مكتباتهم تحت تصرفه. [٤] اشتملت ثقافة الجاحظ على كافة العلوم المعروفة في عصره، فدرس المنطق والفلسفة والرياضيات والطبيعات والسياسة والأخلاق والفراسة، وتكوّنت لديه ثقافة متنوعةٍ وغزيرةٍ، وحين ذاك انتقل إلى بغداد ليزيد من معرفته واطلاعه، ثم اتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة. [٤] اعتبر الجاحظ من أغزر المؤلفين إنتاجاً، فكتب عن الأدب والشعر والديانات والعقائد، وبحث في السياسة والاقتصاد والأخلاق وطبائع الأشياء، وتكلم عن العصبية وتأثير البيئة، فكتب في المدن والأمصار والمعادن وجواهر الأرض، والموسيقى والغناء وكتب في الجواري والغلمان، وغير ذلك مما يتناول الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية في عصره وقبل عصره، [٤] أما عن العلماء والشيوخ الذين أخذ عنهم الجاحظ فقد قال في ذلك أبو الحسن الدهماني: (لا ريب أن الجاحظ علماء وشيوخ، فقد سمع من الأصمعي وكان كثير الرواية عنه، وأبو عبيدة عمر بن المثنى، وأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش، ثم إنه تلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد، وكذلك أخذ عن أستاذ الأصمعي خلف الأحمر، الذي اشتهر برواية الشعر ونحله، وكان الجاحظ معجب بخلف كثيراً، رغم أنه لم يجالسه إلا قليلاً، فقال الجاحظ في ذلك: (لقد جلست إلى أبي عبيدة، والأصمعي ويحيى بن نجيم، وأبي مالك عمرو بن كركره، مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده، ثم إن الجاحظ كان قد اكتسب الثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام، وعن طريق مصاحبته لحنين بن إسحق وسلمويه). [٥] نزعة الجاحظ العقلية امتازت مدينة البصرة في العصر العباسي بنزعتها العقلية في مختلف الميادين، والتي قامت على تحكيم العقل في الأمور مثل أسطورة أو قول مأثور أو عقيدة أو حتى حقيقة، وتقبُّل ما قد يصل إليه العقل حتى وإن خالف هذا ظنه أو اعتقاده، وكان من الطبيعي أن يتأثر الجاحظ بهذه النزعة خاصة مع قابليته الطبيعية المهيئة لذلك نتيجة للظروف البيئية التي عاشها، فقد كان كثير المطالعة والقراءة، محباً للاطلاع على كل علم